

الدرس الخامس والثلاثون

تفسير سورة القيامة: [٧ : ٢١]

{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ
يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ
يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ
(١٥) لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ
فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذُرُونَ
الْآخِرَةَ (٢١)}

لكن دونك الجواب : { فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ } [القيامة : ٧] وهذه هي القراءة المشهورة
(برق)، وقرئت (برق)، و المراد ب(برق) أي: شخَص و انبهر، وما شَخَصَ و انبهر؛
إلا لأمر عظيم رآه، وهي التغيرات الكونية الآفاقية التي لم تخطر له على بال، ولم تدر
له بخيال!.

قوله: { وَخَسَفَ الْقَمَرُ [٨] }، هذا القمر المنير المضيء الذي يُزِين السماء، يذهب
ضوئه يوم القيامة: { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } [القيامة : ٩]، مُذْ خُلِقَا لم يجتمعا: {
كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : ٣٣]، لكنها يوم القيامة يقرنان ويقذفان في جهن
: { يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) }.

هذا الانسان الذي كان يقول: { أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [القيامة : ٦]، يقول يوم القيامة:
{ أَيْنَ الْمَفْرُ } أين الملجأ؟، أين أذهب؟، ماذا أصنع؟! وقع في مأزق عظيم؛ لأن كل

ما كان يُنكره رآه رأي العين: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } [الأعراف : ٥٣] .. نعوذ بالله من هول المطلاع!

يقول الله عزوجل: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [يس : ٥١]: والنسِلان هو: الاسراع في المشي، { قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [يس : ٥٢].
قوله: { كَلَّا لَا وَزَرَ } [القيامة : ١١]، لا ملجأ ولا مذهب.

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } [الرحمن : ٣٣]، وأين لهم السلطان في ذلك الوقت ! وهم يحشرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، ولو قدر جدلاً أن حاولوا النفاذ:
{ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ } [الرحمن : ٣٥] .. { إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) } [سورة القيامة]، إلى الله المآب وإلى الله إياهم وعلى الله حسابهم.

هذه الجمل الرصينة الثقيلة تُقرر المعاد بطريقة حاسمة لا يُدانيها أسلوب ! وهذا من سمات القرآن المكي، كأنها هي أوتاد تُثبَّت في القلوب.

قوله: { يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة : ١٣]، أي إثر البعث والنشور يأتي العرض، والمناقشة، والإقرار، والاعتراف، فيقرر على كل إنسان بما فعل ! يقول الله عزوجل : { وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [الإسراء : ١٣]، أي ما طار من عمله.

{ وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } [الإسراء : ١٣] .. أي : مفتوحًا .
 { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء : ١٤] . ولهذا قال الله
 تعالى عنهم: { وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
 أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف : ٤٩].
 { يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } [آل عمران : ٣٠]، القرآن مثاني يشبهه بعضه
 بعضًا، و يصدّق بعضه بعضًا.

{ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف :
 ٨٠]

{ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ } [القيامة : ١٤]، يخبر الله أيضاً تعالى عن جانب من
 جوانب الطبيعة الإنسانية، وهو أن الإنسان في قرارة نفسه يعرف الحقيقة ويستيقنها
 وإن جحد، وإن اعتذر، كما قال ربنا عز وجل: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ
 ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : ١٤].

فزخرفة الكلام، و ترتيب المعاذير، لا يُغني عنه شيئاً: { وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ }، وهو
 قطعاً في يوم القيامة سيجتهد في دفع العذاب بكل ما يستطيع، حتى أنه يتهم الملائكة
 الكرام!.

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فَضَحِكُ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ، قَالَ: " مِنْ
 مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ:

فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ^(١)، فلهذا ضحك النبي عليه الصلاة والسلام.

كما قال الله ربنا: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يُومئذٍ يوفِّيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين} [النور: ٢٤ - ٢٥].

وقال: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدِيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)} [سورة فصلت] .. فياها من مواعظ! لو صادفت آذانًا صاغية وقلوبًا واعية.

والغالب في ذكر المعاذير في القرآن أنها تخرج مخرج الكذب: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} [التوبة: ٩٠]، {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} [الفتح: ١١]، ولكن ربما كان بعضها حق كالذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجُّدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: ٩٢]، فينبغي للإنسان أن يتحاشا هذا الخلق وهو كثرت الاعتذار، فإن من الناس من في طبعه دوام الاعتذار،

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٦٩).

فكثرته تدل على وجود خلل ، فيحسن بالإنسان أن يسلك مسلك الحزم والمسؤولية وأن لا يلجأ إلى هذا المخرج.

وبعد هذا الفصل المهيّب، الذي يحرّك كوامن النفس الإنسانية ، وينفض البلادة التي تراكمت عليها ينتقل السياق الى مقام آخر، يتعلق بالقرآن الذي فيه العظة، و الحق، و الهدى ، فيقول الله مُحاطباً نبيه : { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) } [سورة القيامة] .. هذه القطعة تصف حال النبي صلى الله عليه و سلم حين تنزل القرآن ، فقد كان لفرط حرصه، بأبي هو وأمي ﷺ؛ على ضبط القرآن وحفظه، إذا تنزل عليه جبريل بالقرآن يتمم بشفتيه يسترجعه؛ لأجل أن لا يضيع عليه ، لأنه مدرك أنه رسول و أن عليه البلاغ، فيخشى أن يتفلت شيء منه ؛ فيأخذ في استذكاره واسترجاعه أثناء تنزله، حتى إن ابن عباس قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُهَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهَا، فَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة: ١٧] قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: { فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } [القيامة: ١٨] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة: ١٩] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ

ذَلِكَ إِذَا أَنَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَهُ هَذِهِ ضَمَانَهُ إِلَهِهِ، أَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ لَهُ هَذَا الْوَحْيَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ؛^(١).

أولاً: أن يجمعه في صدرك.

وثانياً: أن يمكنك من تلاوته، فتقرأه كما أنزل

وثالثاً: وهو أمرٌ عظيمٌ ونعمةٌ سابغة: { **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** }

فالله تعالى قد بين لنبيه ما أنزل إليه، وعرفه مراده منه، ثم هو ﷺ بين لأُمَّته كل شيء، ولم يدع شيئاً من الكتاب بمنزلة الأحاجي والألغاز والأمر التي لا سبيل للعلم بها.

{ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** } [النحل: ٤٤] .. فمن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم البيان، وقد فعل حتى أنه استنطق أُمَّته في حجة الوداع، قال: **(وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟) قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ** ^(٢).

فهذه نعمة عظيمة، لا ريب أنها تجعل المؤمن في طمأنينة تامّة إلى النص، وإلى معنى النص، إنها موثوقية ليس بعدها موثوقية، كما قال في سورة الحجر: { **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } [الحجر: ٩].

فذلك يشمل حفظ ألفاظه، وحفظ معانيه، فليس لأحد أن يقدح في حرف من حروف القرآن، أو يدعي نقصاً أو زيادة تحريفاً. قد تكفل الله بحفظ القرآن، فما بين

(١) أخرجه البخاري رقم (٥)، ومسلم رقم (٤٤٨).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٢١٨).

دفتي المصحف كلام الله، لا يختلف المسلمون في هذا ، دعك من الروافض الذي يزعمون أن مصحفنا ثلث مصحف فاطمة! هذا من ترهاتهم وأكاذيبهم، وليس في أهل الأهواء أكذب من الرافضة ، ودعك من أصحاب المذاهب الكلامية الذين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك بيان بعض الأشياء لأمته ابتلاء، سبحانه الله أيين النبي صلى الله عليه وسلم للأمة دقائق المسائل في العبادات والمعاملات، والعشرة الزوجية، والآداب حتى قضاء الحاجة، ويدع أكبر الأمور وهو ما يتعلق بأسماء الله وصفاته للتخرصات!

لاريب أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين القرآن كله بياناً شافياً، حتى أن مجاهد ابن جبر يقول: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أَوْقَفُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ^(١).

فكيف يتخيّل المتخيّل أن ثمّ شيء من القرآن متروك لاجتهاد الأمة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبينه، هذا طعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وطعن في القرآن الكريم، بل وطعن في حكمة الله تعالى.

حاشا ربنا عزّ و جل، وحاشا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحاشا القرآن أن يقع فيه شيء موهوم ، إن وجد فهو توهم منهم، وأما الراسخون في العلم فيعلمون مراد الله عز وجل، و مراد نبيه صلى الله عليه وسلم. فهذه الآيات مهمة في بيان موثوقية القرآن.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (١١٠٩٧).

ثم قال الله عز وجل: { **كَلَّا** } إما أن يراد بها التنبيه، أو أنها بمعنى حقا، { **كَلَّا بَلْ**
مُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } [القيامة : ٢٠] .. أي أن حقيقة الأمر أن الصارف لكم عن قبول
الحق وإثبات المعاد: تعلقكم بالدنيا، وتشبثكم بشهواتها العاجلة : { **وَتَذُرُونَ**
الْآخِرَةَ (٢١) }، أي تنفرون من ذكر الموت و ما بعد الموت، وتريدون أن تقطفوا
هذه الثمرة العاجلة من الشهوات الدانية وتتشاغلوا بها، هذه حقيقة حال عامة بني
آدم.